الجهد الدعوي
في سيرة الإمام أبي حنيفة النعمان



أ. د. محمد المختار المهدي

الجهد الدعوي في سيرة الإمام أبي حنيفة النعمان

الحمد لله، يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، ويهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، والصلاة والسلام على خير من قام بالبلاغ المبين إلى الناس أجمعين، وربى بالقرآن جيلًا نشر العدل والعلم والهدى في العالمين، ورضوان الله ورحماته على خلفائه وأتباعه وحملة دعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كثرت البحوث والكتب التي تناولت سيرة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وأشادت بعبقريته وفقهه، ولم أرَ من أفرد الجانب الدعوي له ببحث أو مقال مع أهمية الوقوف على جهده الرائع في هذا المجال الخطير؛ إذ ما زالت آثاره في ثقافتنا الإسلامية وما زال عطاؤه فيه رافدًا رئيسًا لكل من كتب عن ثقافة الداعية، وعن منهج الدعوة والحكمة، واختيار المدعوين الإيجابيين.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة تبين هدف البحث ومجاله، يتبعها تمهيد موجز عن نشأة الرجل ورحلته العلمية وأقوال العلماء عنه، ثم خصصت الفصل الأول منه بالحديث عن صفات الداعية وثقافته من خلال ما اتصف به الإمام، وما بدا من تصرفاته ومواقفه، وجاء الفصل الثاني عن منهجه الدعوي، وطبيعة المدعوين، وما تتطلبه من وسائل.

واللهَ أسأل أن ينفع بما كتبت، وأن يعفو عني إن زللت، وأن يلحقنا بالصالحين، وأن يتوفانا مسلمين، وبالله العون والتوفيق.

أ. د. محمد المختار محمد المهدي.

تمهيد:

النشأة والثقافة:

قبل أن نخوض في فكر الرجل وجهده الدعوي ينبغي أن نقدم موجزًا غير مخل عن التعريف به وبنشأته، والعوامل التي أثرت في اتجاهه ونبوغه، فلذلك أهمية بالغة في استيعاب ما منحه الله من قدرة فائقة في الفهم بعمق والغوص بمهارة في كلا المنبعين الرئيسين: الوحي والعقل، وتوظيف ما آتاه الله من علم بهما في التربية والدعوة والإصلاح.

إن اسمه على أرجح الروايات التاريخية – وعلى ما ارتضاه فضيلة الشيخ أبو زهرة – هو: النعمان بن ثابت، وأن جده كان له اسمان، هما: النعمان، وزوطي، وقد كان هذا الجد من أهل كابل بأفغانستان، وحين فتحت المدينة أسره بعض رجال (تيم)، ثم أعتق حين عرف أنه من عظماء المدينة، وبمقتضى هذا العتق صار ولاؤه لتلك القبيلة، فنسب إليها، وصار تيميًّا بالولاء، فارسيًّا بالأصل، أما أبوه ثابت فقد كان من تجار الخز الأثرياء في الكوفة، وقيل: إنه التقى بسيدنا علي بن أبي طالب ودعا له ولذريته، وأما أبو حنيفة فقد ولد سنة ٨٠هـ بالكوفة في عهد عبدالملك بن مروان، وإمارة الحجاج الثقفي، ونشأ بها، فحفظ القرآن الكريم، وتلقاه على يد الإمام عاصم بن أبي النَّجُود، وعاش أكثر حياته فيها متعلمًا ومعلمًا وداعيًا، واشتهر بالصدق والأمانة، والورع والكرم والعلم.، وقد بدأ حياته مساعدًا لأبيه في التجارة، وبدت عليه مخايل الذكاء والنجابة والصدق، حتى أطلق عليه: الفقيه الخزاز، وفي أثناء تردده على السوق قابله الإمام الشعبي المحدث المعروف، فنصحه بالنظر في العلم ومجالسة العلماء؛ إذ رأى فيه يقظة وحركة، فتأثر بالنصيحة، وبدأ يدرس علم العقائد والجدل، وظل ينتقل بين البصرة والكوفة طلبًا لعلم الكلام، كما قال عن نفسه: "وكنت أعطيت جدلًا في الكلام، وأصحاب الأهواء في البصرة كثير، فدخلتها نيفًا وعشرين مرة، وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل؛ ظنًّا أن علم الكلام أجل العلوم، فلما مضت مدة من عمري تفكرت وقلت: السلف كانوا أعلم بالحقائق، ولم ينتصبوا مجادلين، وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه، فتركت الكلام واشتغلت بالفقه.

ثم اختار أستاذه حماد بن سليمان الذي كان يعقد جلساته العلمية في المسجد الجامع بالكوفة، ولازم شيخه حمادًا الذي خلف إبراهيم النخعي تلميذ الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، وكان يكثر السؤال ويلح في الجدل حتى ليحمر وجه حماد، لكن شيخه كان يقدره ويقول: "هذا على ما ترى منه يقوم الليل كله ويحييه"، واستمر في ملازمته عشر سنوات متتابعات، يحظى من شيخه

بقسط كبير من الرعاية، وحين غاب حماد شهرين أناب عنه أبا حنيفة ليجلس مكانه، وفي هذه الفترة عرضت له مسائل لم يسمعها من شيخه، فأخذ يجيب عنها ويدون إجاباته ليعرضها على أستاذه عند عودته، فلما راجعها حماد أقر منها أربعين، وأنكر عشرين، فأحب أبو حنيفة التدوين منذ ذلك.

وكانت أول فتوى خالف فيها شيخه إجابة عن سؤال لرجل كان على دابة سيور وغابت الشمس وليس على وضوء ويريد صلاة المغرب، فقال له حماد: تيمم، فسئل فيها أبو حنيفة فقال: سِرْ وانتظر غيبوبة الشفق، فإذا خشيت ذلك فتيمم.

وحين بلغ أبو حنيفة سن الأربعين، صعدت روح حماد إلى بارئها سنة ١٢٠، فوجد الناس عنده ما لم يجدوه عند غيره، فلزموه وتركوا سواه، حتى إن إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه جلسوا في مجلس أبي حنيفة، حتى صارت حلقته أعظم حلقة في المسجد، وكثر حساده.

وكان وفيًّا لشيخه، يدعو له مع والديه، بل سمى ولده بحماد؛ تخليدًا وحبًّا لذكراه، ودامت حلقته ثلاثين عامًا، وذهب إلى الحج خمسًا وخمسين مرة، يناظر ابن جريج في مكة، والأوزاعي فقيه الشام، والليث بن سعد فقيه مصر، والإمام مالكًا فقيه المدينة، وكان في لقاءات هؤلاء العلماء فائدة كبيرة لأبي حنيفة؛ إذ جمع منها خلاصات التفكير الإسلامي في كل أرجاء العالم الإسلامي، مما جعله قديرًا في الحوار بفهم ووعي.

وقد عرض عليه ابن هبيرة في عصر الأمويين أن يعمل معه، فامتنع، فضربه ضربًا شديدًا حتى تورم رأسه، ولم يضعف أمام جلاده، ولم يتخذ التقية كغيره، بل فر من سجنه إلى مكة بعد أن مكنه الجلاد من ذلك، واتخذ مكة مستقرًّا ومقامًا من سنة ١٣٠ إلى أن استقام الأمر للعباسيين، وعكف فيها على الحديث والفقه – بما ورثت مكة من علم ابن عباس – مدة ست سنوات، تثقف إذًا أبو حنيفة بكل الثقافة الإسلامية في عصره، سواء كان ذلك في الحديث والنحو والشعر والأدب والجدل، ثم تخصص في الفقه بدءًا من تلمذته على يد حماد بن سليمان مدة ١٨ سنة.

أقوال العلماء فيه:

قال عنه الإمام مالك: لو حدثك أبو حنيفة عن السارية أنها من ذهب، لقام بحجته.

قال عنه الإمام الشافعي: من أراد أن يعرف الفقه، فليلزم أبا حنيفة وأصحابه؛ فإن الناس كلهم عيال عليه في الفقه.

قال الإمام الذهبي: هو فقيه الملة، وعالم العراق.

قال عنه ابن المبارك: هو مخ العلم.

قال أبو يوسف: كان أبو حنيفة أبصر بالحديث مني، وكان شديد الذب عن المحارم، شديد الورع، لا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم، طويل الصمت، دائم الفكر، مع علم واسع.

قال الأوزاعي لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة حِلمه، ووفور عقله.

كتب ابن حجر الهيثمي الشافعي رسالة سماها: الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.

كتب السيوطي الشافعي أيضًا رسالة سماها: تبيين الصحيفة في مناقب أبي حنيفة.

الفصل الأول

صفات الداعية وثقافته

من يتصفح ما كتب عن صفات أبي حنيفة في هيئته وسلوكه وعلمه وذكائه ونشاطه وإخلاصه وورعه وكرمه وعزة نفسه وإبائه الضيم وغير ذلك، ثم يقرأ ما سطره العلماء بعده عن صفات الداعية وثقافته التي تؤهله للقيام بمهمة الرسل وخلفائهم - لا بد له أن يعترف بأن لهذا الإمام الريادة في الاتصاف بكل ما ذكروه، وبأكثر مما ذكروه.

فالداعية إلى الإسلام هو العامل الأهم والعصب الحي في منظومة الدعوة، بل هو العمود الفقري في مجال التربية، هو الذي ينفخ فيها الروح، ويجري في عروقها الدماء، فكيف يقضي على الجهل وهو غير ضليع في العلم؟ وكيف يقاوم الهوى والفساد والضلال وهو لم يتسلَّحْ بالإيمان والأخلاق؟!

إن فاقد الشيء لا يعطيه، كما هو مقرر في العقل والفطرة.

ومن هنا كان على الداعية للإسلام أن يفقه الإسلام الذي يدعو إليه، وأن يعرفه معرفة يقينية عميقة من مصادره الأصلية وينابيعه الصافية؛ حتى يكون على بينة مما يدعو إليه، وعلى بصيرة من منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إليه: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨].

ومع هذه المعرفة لا بد له من تشرب هذه المعرفة؛ حتى تختلط بمشاعره وعواطفه، بحيث يتبنى الفكرة ويعيش لها وبها، فتصير له هدفًا وغاية، يحمل همها، ويجهد نفسه في اكتشاف أفضل الوسائل لتبليغها، مع ضرورة أن يكون هو صورة عملية لما يدعو إليه؛ فقد سُئلت عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن"، فمن ينوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته لا بد أن يكون قرآنًا يمشي على الأرض؛ فالقدوة العملية أقوى تأثيرًا من كثرة الكلام، كما أن الكلام لا بد أن يكون محكمًا يتسم بالإخلاص والصدق، وعن ذلك يقول الإمام أبو حنيفة: "إن الكلام كثير، ومحكمه يسير، وإن الكلام لا ينتهي حتى ينتهى عنه، وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله"، وينصح أحد تلاميذه بقوله: "لا تحدِّث بفقهك من لا يشتهيه، ومن ناقشك من العامة والسوقة، فلا تناقشه؛ فإنه يذهب ماء وجهك".

أما عما ينبغي أن يتحلى به الداعية والمعلم من الصفات الظاهرة التي لها تأثير ضخم على

المستمعين، فقد أجمعت المصادر على أنه كان طويل الصمت، حسن الإلقاء، سلس اللفظ، متدفق العبارة، جهير الصوت، يصدع برأيه حيث تعترك الآراء، وحينئذ يسيل كالسيل إذا اجتاح جنبات الوادي، مفتاح شخصية التيسير والتسامح، حسن الوجه، حسن اللحية، حسن الهيئة والثياب، حسن النعل، حسن السمت، شديد الكرم، كثير التعطر، يعرف بريح المسك.

وأما حِلمه وذكاؤه وسرعة بديهته، فحدث عن ذلك ولا حرج، وهذا مثال لضبط النفس عند الاستفزاز، وما أكثر ما استفزه الحاقدون! جاءه أحد هؤلاء وهو في مجلسه وحلقته فقال له: يا مبتدع، يا زنديق، فقال له: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك، وإني ما عدلت به أحدًا مذ عرفته، وعرضت له يومًا مسألة كان للحسن البصري فيها رأي، فخطأه، فقال له أحد المتعصبين: أنت تقول: أخطأ الحسن يا بن الزانية؟ فما تغير وجهه ولا تلون، ثم قال: والله أخطأ الحسن وأصاب ابن مسعود.

كان الإمام هيوبًا مهابًا، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ولا يهتم بما يقوله عنه المتزمتون؛ فقد كثرت الألسنة في قدحه، ومعظم من ذموه لم تصل مداركهم إلى أفقه؛ ولذلك لم يأبه بمناقشتهم، أو الرد عليهم، واثقًا أن الحقيقة ستظهر يومًا ما.

{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: ١٧].

وكان ما توقَّعه، فبقيت أصوات الثناء تتجاوب في الأجيال تعطر سيرته.

وكان مع ذلك متواضعًا، لا يدعي احتكار الصواب، بل كان يقول كثيرًا: علمنا هذا رأي، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه، كما كان يقول: "رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا، فهو أولى بالصواب"، ومن هذا الخلق كان ينطلق بحثًا عن الحقيقة، يناقشه أبو يوسف في مسألة واحدة بعد العِشاء، فما زالا يتجاريان ويتقاربان حتى طلع الفجر، يقول عنه تلميذه أبو يوسف: كان إذا سئل عن مسألة كان له علم بها، أجاب، وكان لا يذكر الناس إلا بخير، ومن تواضعه أنه يقول:

خلَتِ الديارُ فسُدْت غيرَ مسوَّدِ = ومن الشقاء تفرُّدي بالسُّودَدِ

كان دائم النصيحة لتلاميذه الذين يرى فيهم نجابة ليخلفوه، ونصائحه في ذلك درة في جبين الحكمة، نصح مرة قاضي مرو فقال: إذا أشكل عليك شيء من ذلك، فارحل إلى الكتاب والسنة

والإجماع، فإن وجدت ذلك ظاهرًا، فاعمل به، فإن لم تجده ظاهرًا، فردَّه إلى النظائر، واستشهد عليه بالأصول، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب، وبها أشبه.

ومن كلماته: "كل شيء تكلم به، فعلى الرأس والعين، قد آمنا به، وشهدنا بأنه كذلك، ونشهد بأنه لم يأمر بشيء يخالف أمر الله، ولم يقل غير ما قاله الله، وما كان من المتكلفين؛ {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠].

وفي هذا ردٌّ مفحِم على كل من اتهمه بأنه يقدم الرأي على النص، وهكذا ينبغي أن يكون سبيل الدعاة.

كان سريع البديهة، مفحِمًا في حواره، مدافعًا عن آرائه: دخل عليه الخوارج بسيوفهم يحتسبون الأجر عند الله بإغمادها في رقبته، فقالوا: جنازتان بالباب إحداهما لرجل شرب الخمر فمات سكران، والأخرى لامرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة، أهما مؤمنان أم كافران؟ فسألهم: من أي فرقة كانا؟ أمن اليهود؟ قالوا: لا، قال: أمن النصارى؟ قالوا: لا، قال: أمن المجوس؟ قالوا: لا، قال: فممن كانا؟ قالوا: من المسلمين، قال: قد أجبتم، قالوا: أهما في الجنة أم في النار؟ قال: أقول فيهما ما قاله الخليل: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦]، وأقول كما قال عيسى: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨] فنكسوا الرؤوس وانصرفوا.

كان في وجهه أثر السجود، يقوم الليل ويحييه، يتزين للصلاة ولو كان وحده؛ فالله أحق أن يتزين له، قيل: إنه ختم القرآن سبعة آلاف مرة، وكان يتم في رمضان ستين ختمة: ختمة في بياض النهار، وختمة في سواد الليل، وكان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عامًا، وهذا مع ما فيه من المبالغة يدل على عبادة الرجل، وتنسُّكه، وكثرة تلاوته للقرآن، وحرصه على قيام الليل، وهذا هو الزاد الضروري لكل الدعاة؛ فقد كان سيد الدعاة محمد صلى الله عليه وسلم يصلي بالليل حتى تتورم قدماه، وطالبه ربه مرارًا بذلك فقال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]، وقال له: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ١ - ٤]، وعلل ذلك بقوله: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥]، وبعد أن شهد الله له في قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ} [المزمل: ٢٠]، نزلت عليه سورة المدثر تقول له: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر: ١ - ٣]، وكأن القرآن يشير بذلك إلى أن الدعوة لا

بد أن يسبقها تهيئة للداعية بقيام الليل والتهجد بالقرآن.

كان يتكسب من عمله في التجارة، ولم يقبل على تدريسه ودعوته أجرًا، وهذا هو طبع الأنبياء والرسل؛ حيث كانوا جميعًا يرددون: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٠٩]، فقد كان يبيع الحرير الخالص والمخلوط بالصوف، وساعده ذلك على تجنبه السعي إلى الأمراء والأغنياء، بل إنه كان من أكبر تجار الكوفة في دار ابن حريث، وكان يتصدق من ربحه على الفقراء وطلبة العلم، وهذا ملمح دعوي رائع؛ فالإنفاق على طلاب العلم يساعد على التعمق فيه، وتشجيعهم على الاستمرار، والصبر على مشقته، وله مع ذلك أجر الصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به مع تواصل الأجيال في أداء تلك المهمة لنشر دين الله في الآفاق، ولم يكن أبو حنيفة في ذلك بدعًا؛ فمعظم الأئمة والعلماء كانوا يحترفون ما يغنيهم عن التكسُّب بالدعوة، بل نسب كثير منهم إلى حرفته؛ فهذا الإمام الخصاف كان يعيش على خصف النعال، ويؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج، والقفال كان صانع الأقفال، والجصاص يعمل بالجص، والصفار كان يبيع الأواني النحاسية، والإمام حمزة بن حبيب الزيات كان يحمل الزيت على كتفه من حلوان - مدينة بالعراق - إلى الكوفة.

لم يمنعه ولاؤه لبني تيم من أن يتصدر للفتيا وللتعليم، وأن يتبوأ تلك المكانة العالية في تاريخ الأمة، فما كان للعرب فضل بعروبتهم فقط، ولكن الفضل كل الفضل في القيام بخدمة هذا الدين، ونشره، والإخلاص في ذلك، ولقد قال عمر: "لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا، لوليتُه مكاني"، وكان ينادي على أسامة بن زيد كلما لقيه: السلام عليك أيها الأمير، ويقول: إني لا أدعوك إلا به؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وأنت عليَّ أمير، وهذا عكرمة مولى عبدالله بن عباس ظل رقيقًا إلى أن مات سيده، فأعتقه ابنه علي، والإمام نافع كان مولًى لابن عمر، وابن سيرين كان مولى لأنس بن مالك، وغيرهم كثير.

كان مثلًا رائعًا للورع والبُعد عن الشبهات، وقد تواترت الأنباء عن ذلك في تجارته، يقول شريكه بعد أن انفضت الشركة معه ثلاثين عامًا: "جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم، فلم أرَ أحدًا أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة، كان إذا دخلت عليه شبهة من شيء، أخرج من قلبه ذلك، ولو بجميع ماله؛ فالشك عنده يزيل اليقين بخلاف القاعدة، كان لا يشتري بما يريد البائع، ولكن بقيمة السلعة في الواقع، وكان يمقت المماكسة، فيطبق الفقه على التجارة بالصدق، فربطت التجارة عنده بين دنيا الفقه ودنيا الناس.

جاء رجل يشتري ثوبًا من خز، فطلب من ابنه حماد أن يخرج له ثوبًا، فنشره وهو يقول: صلى الله على محمد، فقال أبوه: مه قد مدحته، ورفض بيعه بالرغم من إصرار المشتري على شرائه.

وبعث بصفقة ثياب إلى شريكه، وأعلمه أن في ثوب منها عيبًا، وطلب منه أن يبينه للمشتري، فباع شريكه الصفقة ونسي أن يبين عيب الثوب، واستوفى ثمن الجميع، مع أن منه ثوبًا غير كامل، وكان الثمن ثلاثين ألفًا، فأمر شريكه أن يبحث عن المشتري، ولكنه لم يهتدِ إليه، فأبى أبو حنيفة إلا فصالًا من شريكه، وتتاركا، وتصدق بثمن الصفقة كلها.

وجاء رجل بثوب يبيعه، فقال: بكم؟ قال: بكذا، قال: إنه يستحق أكثر من ذلك، ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف.

وجاءته امرأة بثوب وطلبت فيه مائة، فقال لها: هو خير من مائة، بكم تقولين؟ فزادت مائة مائة حتى قالت: أربعمائة، قال: هو خير من ذلك، فقالت: أتهزأ بي؟ قال: هات رجلًا يشتريه، فاشتراه بخمسمائة درهم.

كان عصره يموج بالفتن والفرق - كما هو الآن - فاتخذ لنفسه موقف الحكَمِ الذي لا ينحاز إلا إلى الحق، وصحيح الدين، وحين يضطر إلى الحوار مع مخالفيه كان يسعفه ذكاؤه وسرعة بديهته، كما حدث منه مع الخوارج القائلين بكفر مرتكب الكبيرة، وقد سبق إيراد الحوار معهم، وصرح في الفقه الأكبر بعقيدته الواضحة في قوله: "ولا نكفر مسلمًا بذنب من الذنوب، وإن كان كبيرة، إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمنًا حقيقة، ويجوز أن يكون مؤمنًا فاسقًا غير كافر".

ومن أوضح الأمثلة على عبقريته في الجدال مع مخالفيه حتى يفحمهم أنه كان على موعد مع الزنادقة الذين ينكرون وجود الله وتدبيره للكون، فتأخر عن موعده عمدًا، وحين سئل عن ذلك قال: لم أجد مركبًا يحملني عبر النهر، فوقفت أنتظر، فإذا بلوح من الخشب يظهر فجأة، وإذا بلوح آخر ينضم إليه ويلتصق به، وبلوح ثالث، حتى صارت هذه الألواح سفينة، وليس فيها أحد، فركبتها وأتيت إليكم، فقالوا جميعًا: إن هذا ليس من المعقول! فقال: "أتتعجبون من صنع سفينة بلا صانع، وتنكرون أن يكون لهذا الكون البديع خالق مدبر؟! ومثل هذا المنطق هو الذي يفحم العلمانيين والشيوعيين واللادينيين.

أما موقفه من صفات الله تعالى، فقد كان هذا العصر مثل عصرنا الراهن، تضطرب فيه الآراء حولها،

وقد سبق له أن تردد على علماء الكلام في البصرة، ثم انصرف عن هذا المجال لما رأى فيه من مخالفة نهج السلف، وقرر في الفقه الأكبر: "أن الله لا يشبهه شيء من خلقه، ولا يشبه شيئًا من خلقه، لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية، أما الذاتية فالحياة والقدرة، والعلم والكلام، والسمع والبصر والإرادة، وأما الفعلية فالتخليق والترزيق، والإنشاء والإبداع والصنع، وغير ذلك.

وما أحوج الداعية الآن إلى عدم الخوض في أسماء الله وصفاته، وبخاصة أمام العامة، كما قال الإمام الغزالي بضرورة إلجام العوام عن علم الكلام، وكما قال الفخر الرازي: "لقد تأملت المناهج الفلسفية والطرق الكلامية، فلم أرها تشفي عليلًا، أو تنفع غليلًا، ورأيت خير الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، ومَن جرَّب مثل تجربتي، عرَف مِثل معرفتي".

هكذا سار العلماء الأفذاذ مسيرة الإمام الأعظم، وهذا ما ينبغي للدعاة اليوم؛ حتى تأتلف القلوب، وتتجه الطاقات في اتجاهها الصحيح، تدك أعناق الملحدين، وتصد الهجمة الشرسة على هذا الدين.

ونستطيع بعد هذا التطواف في صفات الإمام ومواقفه وتطبيقاته العملية لِما علم من شرع الله: أن نقدم لدعاة الإسلام في هذا العصر نصيحة تقفهم على طريق الإصلاح المأمول؛ فعوامل النجاح والإخفاق من سنن الله التي لا تتبدل؛ {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الفتح: ٢٣].

وتتلخص النصيحة في استعراض هذه النقاط التي برزت في منهج الإمام من حيث الأسلوب والمظهر والأخلاق.

خيرُ الكلام ما أريد به وجه الله - الكلام كثير، ومحكمه يسير - طول الصمت أفضل من الثرثرة، سلاسة اللفظ وتدفق العبارة يحتاج إلى معايشة لغة القرآن، حسن الهيئة والوجه الصبوح وسرعة البديهة من عوامل القَبول لدى المدعوين، الحِلْم والصبر وعدم قابلية الاستفزاز والتواضع وعدم الغرور والعناية بالصف الثاني والثالث من الدعاة رعاية ونصحًا، قيام الليل، وترتيل القرآن وتدبر معانيه.

كل هذه الصفات من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه الدعاة الآن.

التعفُّف عن تلقي الأجر أو طلبه من المدعوين ضرورة شرعية، فإذا أمكن للداعية أن يكون له عمل يتكسب منه، كان تأثيره أكبر، والإقبال عليه أكثر؛ اقتداءً بالرسل والعلماء، مكانة الداعي لا تخضع لأصله أو غناه، ولكن لعلمه وخُلقه وجهده، الورع والزهد فيما عند الناس والحرص على البُعد عن الشبهات دليل الإخلاص والقرب من الله، وعلامة على التقوى التي تخرج التقيَّ من المآزق، وتفتح له باب الرزق الواسع.

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٢، ٣].

عدم الخوض في عالم الغيب، وبخاصة ما يتعلق بالذات العلية، يجنب الداعية الصدام مع المتزمتين، والجدل مع العوام، ويفسح المجال أمام البيان الواضح لعقيدة الإسلام.

الفصل الثاني

طبيعة المدعوين

يتفرد الإسلام من بين الرسالات السماوية والأنظمة الوضعية بأنه دين عالمي الدعوة، ختم الله به رسالاته، ورضيه للناس دينًا يتسق مع الفطرة التي فطرهم عليها بلا فرق بين جنس ولون وعِرْق ولسان، وكلف بتبليغه كل من سمع عنه، أو آمن به، وخص العرب بمسؤولية خاصة تجاه ذلك، من حيث إن الوحي الخاتم نزل بلغتهم، فكان في ذلك شرف لهم، يترتب عليه عبء الدعوة إليه من منطلق فهمهم لمراد الله، ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: ٤٣، ٤٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((بلّغوا عني ولو آيةً))؛ (صحيح البخاري)، وقال: ((ليبلّغِ الشاهد منكم الغائب؛ فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامعٍ))؛ (صحيح البخاري)، وقال: ((تَسمعون، ويُسمَع منكم، ويُسمَع ممن سمع منكم)) (سنن أبي داود).

لهذا وجب على كل مسلم: أن يدعو إلى الله بالمنهج الذي رسمه الله؛ بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، إما على سبيل الوجوب العيني؛ وذلك في نطاق ما عُلِم من الدين بالضرورة، وهو ما يسمى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو صفة المجتمع الإسلامي، وهو مناط خيريته على الأمم، {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٧١]، {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ١١٠]، وإما على سبيل الوجوب الكفائي لمن يتفقه في الدين، ويتعمق في إدراك مراد الله من العلماء الذين يفرض الله على الأمة أن تتبنى تعليمهم، وأن تخرج من كل فرقة طائفة منها تتفقه في دين الله، وتحرس الدِّين، وتحذر من الانحراف، وذلك كما في قوله: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن يُرِد الله به خيرًا، يفقّهه في الدين))؛ (صحيح البخاري)، وقوله: ((طلب العلم فريضةٌ على كل مسلمٍ))؛ (سنن ابن ماجه).

على أن من يتولى الدعوة، لا بد أن يكون على بصيرة مما يدعو إليه، كما سبق في الفصل الأول، وأن يكون على بصيرة أيضًا من أحوال من يدعوهم، ومن لغتهم، ومن طرق توصيل المعلومة إليهم،

كما قال سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم: ٤]، ولأن الدعاةَ نواب هؤلاء الرسل لا بد من الإلمام بلسان من يدعوهم إلى الله؛ ولذلك كان من مستلزمات القيام بهذا الواجب أن يتعلم الدعاةُ لغةَ من يرسلون إليهم، بمعنى أن يخصص لكل دولة مجموعة من الدعاة تتقن وسائل توصيل الدعوة إليهم، وهذه هي الفكرة الأساسية لإنشاء كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر.

وليست اللغة وحدها بكافية لفهم واقع المجتمع الذي يُتكلَّم بها معه؛ فلا بد من دراسة البيئة دراسة عميقة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في المنهج الذي وضعه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في قوله: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢].

وفي آية أخرى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤].

ذلك أنه حين يكون الداعي ممن يقيم مع المدعوين يدرك ما يشغَلهم، فيقدم الأهم على المهم، ويحدِّد المداخل إلى قلوبهم وعقولهم، والوسائل التي تصلح معهم، وقد يكون ذلك مما دعا كثيرًا من الفقهاء إلى أن يشترطوا في خطيب الجمعة أن يكون مقيمًا بالبلد مدة، ثم على الداعي أيضًا أن ينوّع خطابه حسب أوضاع الفئة التي يدعوها؛ فما يصلح للحضر ربما لا يصلح للبدو، وما يخاطب به المثقفون غير ما يخاطب به العوام، وما يصلح للصغار ربما لا يصلح للكبار، وهكذا..

من هذه الحقائق الدعوية ندلف إلى فكر إمامنا الأعظم لنتعرف على طبيعة من اختارهم لدعوته، وكيف تعامل مع كل فئة بما يلائمها، وبما هو على استعداد للخوض فيه معهم، فليست الدعوة خاصة بالمنبر ويوم الجمعة، وقد رأينا في سيرته أنه قد اختار مخاطبة العامة بالأسلوب العملي، بمعنى أنه كان حريصًا على أن يقدم الإسلام لهم في صورة عملية؛ فحال الداعية أفضل من لسانه وبلاغته، والمدعوون في أشد الحاجة إلى القدوة، ولولا ما كان يتميز به المصطفى صلى الله عليه وسلم من خلق فاضل أثنى به عليه ربه في مثل: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩]، وفي مثل وصف أقرب الناس إليه حين نزول الوحي عليه، حيث قالت له السيدة خديجة: "إنك لتصِلُ الرَّحِم، وتصدُقُ الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتَكسِب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب

الحق"؛ (صحيح البخاري) – لولا ذلك، لَمَا نجحت دعوته، ولَمَا أقبل الناس عليه، أو كما قال الله تعالى، ومن هنا وجدنا الإمام أبا حنيفة، لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إذا سمع اللغو أعرض عنه، يجهر بالحق حين يصمت أولو النهى، يتكسب من عمله؛ ليحافظ على كرامته، تظهر آثار النعمة عليه في ملبَسِه وعطره وأناقته، يتخذ الوقار رداءً له، فلا يتكلم إلا جوابًا، يقاوم طغيان الأمير في زمن الأمويين، والخليفة في زمن العباسيين، ويصبر على التعذيب من كليهما، يصارع أهل التعصُّب للتقاليد والمذهبية، يجالس الصالحين أصحاب القلوب الرقيقة، وينفِرُ من المتكلمين أصحاب الأفئدة الغليظة، كما عبر عنهم، يلازم القرآن وقيام الليل، يحسن إلى المكروبين، لا يرد سؤال السائلين، يتحاشى الشبهات، ويلزم الورع، يشفع لجار سكير أخذته الشرطة، فيتوب الرجل عن شرب الخمر، ويجتهد في طلب العلم حتى صار من العلماء، يشتري الخبز يوميًّا يوزعه على جيرانه وعلى كل من يختلف إلى بابه، وكان يقول: "ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته، ولولا أني أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء، ما تركت منها درهمًا واحدًا"، رفض مقولة الكذب المباح.

هذه الأخلاق المستقاة من سيرة خير الدعاة جعلت أثره في العامة أفضل من أي خطيب، وقد مر في الفصل السابق بيان لما تميز به من صفات كانت من أسباب ثقة الناس فيه وحبهم له.

أما الجانب الآخر من دعوته، فقد اختار مجال التدريس لطلاب العلم، وإكرامهم ورعايتهم، فتكونت على يده مدرسة الفقه التي وصفها الإمام الشافعي: "بأن كل الناس عيال على فقه أبي حنيفة"؛ ذلك أنه كان يترك لتلاميذه الحرية في نقده، وتخطئته أحيانًا، ويظل يتناقش معهم بالساعات الطوال، ويتدارس معهم مسائل الفقه بالمعقول والمنقول.

ولقد كان في ذلك بعيد النظر، مستشرفًا للمستقبل الذي جدت فيه أحداث ووقائع لم يكن ممكنًا أن يستوعبها الفكر التقليدي لدى المتزمتين في عصره، الذين تعجز ملكاتهم عن الفهم الواعي للنصوص، والذين اتهموه بأنه يقدم الرأي على النص، وكذبوا؛ فقد كان ثقة في الحديث، وعالِمًا بالجرح والتعديل، ولم يرد إلا الحديث الشاذ، بل كان يقدم الحديث الضعيف على رأيه، ويكفيه أنه كان من التابعين؛ فقد اتفق المؤرخون على أنه رأى أنس بن مالك بالكوفة، بل ذهب ابن حجر إلى أنه رأى أربعة من الصحابة غير أنس، هم: عبدالله بن أبي أوفى، وسهل بن سعد، وعبيدالله بن أنيس، وعمرو بن حريث، كما يكفيه موقفه من علم الكلام وتفضيله لِما كان عليه المتقدمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بهذا المنهج وبتلك الثقافة وبهذه العقلية المتحررة، ناظر أعلام الفقهاء في عصره، وربى تلامذته، على أن العمل المستقيم لا بد أن ينبني على فكر مستقيم، وعلم مقرر ثابت، وأن المعلم يجب ألا يكون فيه تردد في مسائل العقيدة والإيمان، أما ما يتعلق بالعمل فيكتفى في إثباته بالأدلة الظنية، وفي مثل هذا لا يجزم الشخص ببطلان قول مخالفه، بل يرجح قول نفسه، ويقول: إنه صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب.

بل كان ينصح تلاميذه بدرر غالية، مثل قوله لتلميذه يوسف بن خالد البستي: "متى أحسنت عِشرة قوم ليسوا لك بأقرباء، صاروا لك أمهات وآباء، أنزل كل رجل منزلة، وأكرم أهل الشرف، وعظِّم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطِف الأحداثَ، وتقرَّب من العامة، واصحَب الأخيار، ولا تخادن خسيسًا ولا وضيعًا، وابذُلْ طعامك؛ فإنه ما ساد بخيل قط، وأحسن إلى من يحسن إليك ومن يسيء، وتغافل عما لا يعنيك، وأفشِ السلام، ولو على قوم لئام، وأعطِ كل من يختلف إليك نوعًا من العلم ينظرون فيه.

والمودة تستديم مواظبة العلم، وارضَ لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدم إليهم حسن النية، واطرح الكِبْر".

هكذا كان ينصح تلاميذه، بما صار له خلقًا ومنهجًا، وكان له معوانًا على تبوئه مركز الإمامة.

ومن كلماته التوجيهية والدعوية لتلاميذه ما يأتي:

١ - من تكلم في شيء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه: كيف أفتيت في ديني؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه.

٢ - من طلب الرياسة في غير حينه، لم يزل في ذل ما بقي.

٣ - أقبل على متفقهيك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنًا وولدًا؛ لتزيدهم رغبة في العلم.

٤ - اعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير.

٥ - لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت.

٦ - من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي داء هي حتى يجيء الطبيب، كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه.

٧ – كن من السلطان كما أنت من النار، تنتفع منها وتتباعد عنها، ولا تدنُ منها؛ فإنك تحترق.

٨ – أنتم مسار قلبي، وجلاء حزني، قد أسرجت لكم الفقه وألجمته، فسألتكم بالله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم، لَمَا صنتموه عن ذل الاستئمار.

هكذا يحثهم على التحري والدقة عند الكلام في العلم أو نقد العلماء، استحضارًا لمساءلة الله عند لقائه، ويحذرهم من السعي إلى الرياسة؛ فهي حسرة وندامة، ويناشدهم أن يحرصوا على معرفة الشرع؛ حتى ينبني العمل على تلك المعرفة، فمهما كثر العمل مع الجهل فلا فائدة منه، وألا يكتفوا برواية النصوص دون التعمق في مدلولها، وجمع الأشباه والنظائر، والتوفيق بين ما يبدو عليه التناقض، وألا يعتمدوا على ما يقرؤونه في الكتب حتى يعرفوا دليل ما في هذه الكتب، وأن يحذروا القرب من السلطان وطلب الإمارة بالعلم، أو الدنيا بالدين، وينصحهم حين يتبوؤون مقعد التدريس أن يتعاملوا مع الطلاب على أنهم أبناؤهم، فيتعاملوا معهم بالحب والود، والصبر والمتابعة لأحوالهم، وبهذا يسبق الإمام كل نظريات التربية والتعليم بأكثرَ من ألف عام.

مواقفه التربوية مع طلابه ومدعويه:

١ – وجَّه ولده حمادًا إلى دراسة علم الكلام فترة، ثم أمره بالانصراف عنه، فجادله ولده قائلًا: ألست كنت تأمرني به؟ قال: بلى، وأنا اليوم أنهاك عنه، قال: ولِمَ؟ قال: يا بني، إن هؤلاء المختلفين في أبواب علم الكلام كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم، فألقى بينهم العداوة والاختلاف، وهمة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه، فإذا بلغ الكلام هذا الحد، فتركُه خير.

٢ – أدب تلاميذه بأربع وسائل: بالعلم، والقدوة، والإقناع، وتقديم العلم في وعاء من الحب.

٣ – رفض أن يتكلم في عِرض مَن تكلم في عِرضه، قال له قائل: يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد؟! قال: هو فضلُ الله يؤتيه من يشاء، عفا الله عمن قال فينا مكروهًا، تفقَّهوا في دين الله، وذرُوا الناس وما اختاروا لأنفسهم.

٤ – من شدة حرصه على التطهر في الجسد والثوب والمكان، خالف سفيان الثوري في جواز الوضوء بماء توضأ به الغير، وطبق أتباعه ذلك عمليًّا؛ فاتخذوا للوضوء حياضًا ذات صنابير تمنع استعمال الغير لهذا الماءِ غيرِ المطهِّر عند أبي حنيفة؛ فنُسبت إليهم هذه الصنابير وسميت بالحنفيات، فالحنفية التي نستعملها الآن صباح مساء تذكرنا بهذه الحلقة المباركة لأبي حنيفة

وطلابه.

٥ – كان صبورًا معهم لدرجة إرهاق جسده من السهر: خرج ذات ليلة من المسجد بعد صلاة العِشاء، فسأله تلميذه (زفر) في مسألة، فتجاريا يتقايسان حتى نودي لصلاة الفجر وهما قائمان أمام المسجد، فرجعا إلى صلاة الفجر، ثم رجعا إلى المسألة حتى استقرت على قول أبي حنيفة.

٦ – كان حين يشكل عليه مسألة يقول: ما هذا إلا لذنبٍ جنيته، فيستغفر الله، ويتوضأ، ويصلي ركعتين، فيمن الله عليه بحل المشكلة.

٧ – اقتحم الخوارج المسجد وأبو حنيفة وأصحابه جلوس، فقال لأصحابه: لا تبرحوا مكانكم، فجاء إليهم الخوارج يريدون الفتك بهم، فقالوا: ما أنتم؟ فرد أبو حنيفة عليهم: نحن مستجيرون، قال أميرهم: دعوهم، وأبلغوهم مأمنهم، واقرؤوا عليهم القرآن، فسلمت المدرسة من الإبادة بسرعة بديهته.

٨ – يدخل عليه غلام فيسأله مسألة، فيجيب عنها أبو حنيفة، فيقول الغلام له: أخطأتَ، ويعرض عليه مسألة أخرى، فيقول له: أخطأت، فيتأذى بعض الحاضرين من جرأة الغلام على أبي حنيفة، فيقول له الشيخ: دعهم؛ فإني قد عودتهم هذا من نفسي.

هكذا يتضح من هذه المواقف رفضه للخوض في علم الكلام والخلاف الذي لا يؤدي إلا إلى العداوة وضياع الوقت والجهد فيما لا يفيد، وكأني به ينصحنا الآن بذلك بعد أن فشا في شبابنا هذا الداء الوبيل، ورفضه للغِيبة حتى فيمن يغتابه، وصبره على طلابه، ولو نسبوا إليه الخطأ، ولو أسهروه الليل كله؛ فقد كان يوقن أن كل ذلك جهاد في سبيل الله، كما رأينا سرعة بديهته وإدراكه لمعتقدات الخوارج، واستخدام الحيلة في نجاته ومن معه.

إن من يُعنَى بتربية الدعاة والقضاة وأهل العلم يكون قد ربى بهم أمة، فمهما بلغ الداعية من نبوغ وتوفيق فإن أثره سيكون في سامعيه فقط، أما من ربى الدعاة فإن مساحة التأثير ستتسع بانتشار هؤلاء الدعاة يحملون فكر الإمام، وهو في كل نصائحه يتوخى ما كان عليه سلفه الصالح، وأولهم صاحب الخُلق العظيم صلى الله عليه وسلم.

وباختيار الإمام لمدعويه ولطريقة دعوتهم، سواء كانوا من العامة أو من طلاب العلم، نراه قد استوفى الجانبين النظري والعملي مع الطلاب، واكتفى بالعملي مع العامة.

وهذا من توفيق الله وعونه، جزاء إخلاصه وعبادته، وجهاده وأخلاقه.

وكان من تلاميذه من تسنم عرش العلم والفتيا والقضاء، وكان منهم من تنسك وزهد وتورع عن قبول الرياسة؛ فمنهم عبدالله بن المبارك، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني - وهما صاحباه وناقلا مذهبه - ومنهم زفر بن الهذيل الذي تولى الحلقة بعده، والقاسم بن معن حفيد عبدالله بن مسعود، وكان من أقرانه الذين تركوا حلقاتهم وأبوا إلا أن يحضروا حلقته متلقين: إسماعيل بن شيخه حماد بن سليمان، وأبو بكر النهشلي، وأبو بردة الضبي، ومسعر بن كدام، والحسن بن عمارة، والوليد بن أبان، وأسد بن عمرو البجلي، والفضيل بن عياض، ووكيع بن الجراح شيخ الشافعي، وحفص بن غياث، ويحيى بن زكريا، والمغيرة بن حمزة.

لقد أربت حلقته على أربعين طالبًا، صاروا جميعًا أئمة أعلامًا، تواصل بهم فقه الشريعة الغراء، ويكفي أن نعلم أن تلميذه محمد بن الحسن الشيباني هو الذي دوَّن وألَّف، ورحل إلى المدينة، فروى الموطأ عن الإمام مالك، وتتلمذ عليه الإمام الشافعي، وتتلمذ الإمام أحمد على الشافعي، أما أبو يوسف فتولى القضاء للخلفاء الثلاثة: المهدي، والهادي، والرشيد الذي عينه قاضي القضاة، وألف له كتاب الخراج.

وفاته:

سطر الإمام أبو حنيفة في أيامه الأخيرة حروفًا من نور لا يمحوها الزمن؛ فقد اتفق المؤرخون على أن المنصور طلبه للقضاء، فامتنع؛ تطبيقًا لمذهبه في عدم القرب من السلطان، وخشية من الوقوع في الظلم بتأثير المجاملات أو النفاق، وحلف المنصور ليفعلن؛ فهو الأجدر بهذا المنصب، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، فأمر بسجنه وضيق عليه، فلم يهتم، فأمر بضربه كل يوم عشرة أسواط، فلم يؤثر عليه ذلك، وما حزن إلا لحزن أمه، واستمر على موقفه إلى أن صعدت روحه الزكية سنة ١٥٠هـ، وخرجت المدينة عن بكرة أبيها في جنازته، حتى إنهم أعادوا الصلاة عليه مرارًا كثيرة، وكان يسمع ضجيج الناس وبكاؤهم لمسافة أميال، وبكاه العلماء والشعراء، وبقي ذكره في التاريخ شهيد العلماء، وعالم الشهداء رحمه الله، وألحقنا به في الصالحين.

فهرس المحتويات